الدخيل المعتدى

أرسلَ الأنّاتِ من قلبٍ أمضتْهُ السنونْ
ومضى ينظر فى سُكرته طيفَ المنونْ
حائماً فوق فراش الموت فى جوف الدجونْ
كبغاثٍ هبطتْ تهزأ بالنسرِ الطعينْ

« • »

قال : «يا إحْسانُ ! ما أقصاكِ يا حسناءُ عنّى !
قد دنا مِسّىَ طيفُ الموتِ فادنىْ أنتِ مِنى
زوِّدينى قبلةً أنسى بها آلامَ حَيْنى
وابسمى كالزهرةِ الفيحاء فى الروض الأَغنّ »

« • »

ركعتْ قُرْبَ سريرِ الموتِ إحسانُ وقالتْ :
« يا أبى ، ما رونق الدنيا إذا دنياكَ دالتْ ؟
يا أبى ، انى فتاةٌ ، إنْ رماها الدهرُ مالتْ
هربتْ من وجهىَ البسمةُ والأدمعُ سالتْ »

« • »

كَفْكَفَ الشيخُ دموعَ الخودِ بالقبلاتِ تترَى
ورنا نحو السماء الجونِ والأعين شكرَى
ومضى يهتف : يا ربى ! ألا إنك أدْرَى

إنْ قبضتَ الآن روحى ، لستُ أعصى لك أمرَا

« • »

إنما إحسان هذى ، مَنْ تُرَى سوف يراها ؟
مَن تُرَى غيرك يا من قد نماها وبراها ؟
ومِن المبدأ منه واليه منتهاها
قادرٌ أن يبسط العيش لها أمناً وجاها ؟ »

« • »

لم يكد يهدأ حتى طُرِقَ البابُ طويلا
هتفتْ إحسانُ : «من يطلب فى الليل الدخولا ؟»
قال مَن بالباب : « إنى أطلب الشيخَ العليلا
سوف أشفيه ، وأمحو ذلك الداء الوبيلا »

« • »

صاح ربُّ البيت : «أهلاً بفتى النبلِ الصحيحِ
افتحى إحسان ، قد طافتْ بنا كفُّ المسيحِ
سوف تنجينى من الموت ، وتشفى لى جروحى
عجلى ، إحسان ، هذا مَلكُ العطفِ المريحِ »

« • »

رَحَّبَتْ احسانُ بالزائر لمَّا أنْ دخلْ
وجرتْ فى فرحةِ الطفلةِ نشوَى تحتفلْ
وانثنتْ لله ، فى فَرطِ خشوعٍ تبتهلْ
فى دعاءٍ خالص الأنفاس ، مسولِ الأملْ

« • »

واذا الزائرُ كالمأخوذ يرنو للفتاهْ
مثل صوفىٍّ رأى فى روعةِ الحلم الإلهْ
كاد لولا عقله الراجح يهذى بهواهْ
ومضى يهتف فى نجواه : « احسان الحياهْ ! »

« • »

وانثنى ينظر حال الشيخ فى صبرٍ عجيبِ
قال : « انى منقذٌ جسمك من داءٍ عصيبِ
كاشفٌ عنك ستار العجز ، ماضٍ بالكروبِ »
صاح ربُّ الدار: « قلْ ، ماذا تُرَجِّى ياطبيبى؟»

« ٠ »

قال : « ما أرجوه ، إحسان الفتاة الناعمهْ
زوجةً لى فى ضفاف النيل تسرى حالمهْ »
صرحت إحسان : « يا جَوْرَ الحياة الظالمهْ ،
كيف ترضى يا أبى أنْ أغتدى كالسائمهْ ؟!

« • »

ومتى كانت فتاة النيل تُشْرَى وتباعْ ؟
ومتى إحسانُ كانت تقتنى مثل المتاعْ ؟
يا أبى ! ما قيمة الأعمار والمجد مضاعْ ؟
يا أبى احاذرْ من الإفكِ ، أمِط هذا القناعْ !»

« • »

هتف الشيخُ: « ألا فاطلب اذا شئت سواها!»
صرخ الزائرُ : « إنى زاهدٌ فيمن عداها
وسواءٌ رضيتْ أم كرهتْ إنى فتاها
راشفٌ منها الأمانى ، دائدٌ عنها عداها ! »
صرخ الشيخ : « ألا فاذهب كما جئت سريعا »
فأجاب الزائر الفاجر : « إنى لن أطيعا ،
مَن يروم الآن طردى سوف أرديه صريعا

إننى سيدُ مغناكم ومن فيه جميعا . . »

« • »

بصق السيدُ فى وجه اللئيم الغاشم
فهوى اللصُّ عليه فى فجور آثم
منشباً فى صدره خنجرَ وحش هائم
صرخت إحسان : « يا للمستبدّ الظالم . . ! »

« • »

قال : « يا إحسانُ ! إنى ذائدٌ عنك الشجون
كلُّ خطب يا فتاتى ، حينما يمضى يهونْ ! »
قالت : « اذهب سوف تصلى النار يا كفَّ المنونْ
ما انتفاعى بحياةٍ ، كل ما فيها مهينْ ؟ »

« • »

أمسكتْ احسانُ بالخنجر وارتاحت اليهِ
وضعته بين نهديها ، وقد مالتْ عليهِ
هتفت والموتُ قد قرب منها ملكيهِ :
« مرحباً بالموت ! صِنتْ روعة المجد لديهِ ! »

« • »

لم تَمُتْ إحسان بل سارت لكهف الأبديهْ
حيث تبقى صورةً صادقةً للوطنيهْ
ومثالاً رائعاً ينفخ فى الوادى الحميهْ
ويرينا ، فى سبيل المجد ، كم تحلو المنيهْ !

مختار الوكيل

---

(١) هذه القصيدة من ديوان « الزورق الحالم » للشاعر وهو تحت الطبع .